أفانين

أبو النجم الرجاز
وهشام بن عبـــد الملك
للأســـتاذ على الجندى

فى عصر بنى أمية لمعت أسماء ثلاثة من الرُّجاز ، زاحموا الشعراء بالمناكب على أبواب الخلفاء والولاة ، وقاسموهم جزيل الصِّلات وسنىّ الهبات ، بل أكرهوهم على أن ينظروا إليهم بعين التجلّة والإكبار ، ويروا فيهم منافسين يُخشى بأسهم ، وترهب صولتهم ، فاضطروا إلى مجاراتهم فى هذا الفن الناهض ، ليفوزوا بالحسنيين ، فكان جرير والفرزدق من الشعراء الرجاز

هؤلاء الثلاثة الذين سموا بالرجز من الحضيض إلى الذروة ، واستنقذوا أهله من الخمول والصّمة : هم : العجّاج التميمىّ وابنه رُؤبة ، وأبو النجم العِجْلى ، وفيهم يقول أبو عبيدة : ما زالت الشعراء تقصر بالرجاز حتى قال أبو النجم :

الحمد لله[1] العلى الأجلل

وقال العجاج : قد جبر[2] الدين الإلٰه فجبر

وقال رؤبة : وقاتم الأعماق خاوى المخترق

فانتصفوا منهم !

لم يكن للرجز فى الجاهلية نباهة شأن ، فقد كان البدوى يصوغ منه بضعة مشطورات فى الحرب والمفاخرة والسِّباب ، أو يرسلها فى غرض تافه كوصف ظبى أو ظليم أو ثور وحشى ، حتى جاء شيخ الرجاز وأرصنهم قولاً : الأغلب[3] العجلى من المخضرمين ؟ فأطاله قليلاً على عهد الرسالة ، فكان مثله فى الرجاز مثل المهلهل التغلبى فى الشعراء

(١) عددها ١٩١ شـطراً وهى أرجوزة نادرة نشرت على طولها فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ٨ : ٤٧٢ — ٤٧٩ سنة ١٩٢٨ م (هامش خزانة الأدب ٢ — ٢٤٠ طبع المكتبة السلفيه وإدارة الطباعة المنيرية) .

(٢) تقع فى مائتى بيت وقوافيها موقوفة مقيدة ، ولو أطلقت وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها (العمدة ١ : ٥٦)

(٣) أدرك الاسلام وأسلم واستشهد فى وقعة نهاوند

ولكن فى هـذا العهد — عهد بنى أمية — وثب الرجز وثبة قوية موفقة ، فبارى الشعر فى جُلّ خصائصه كما باوته الرسائل الأدبية فى أواسط العصر العباسى ، فاستعمل فى المدح والهجاء والفخر والرثاء ، وذكر الديار والظعائن ، والوقوف على الأطلال والرسوم والدِّمن ، وبكاء الشباب ووصف الرحلة إلى الممدوح ، والتمهيد بالنسيب ، والتخلص منه إلى المدح والذم إلى غير ذلك من أغراض الشعر الصميمة

وحسبك فيما بلغه الرجز من رفيع المنزلة ، قول المتنجع[1] لرجل من الأشراف : ما علمت ولدك ؟ قال : الفرائض . قال : ذلك علم الموالى لا أبالك ! علمهم الرجز فإنه يُهَرِّت أشداقهم « يوسعها »

ويقتضينا الإنصاف أن نقول : إن السابق إلى تقصيد الرجز وتضمينه فنون الشعر : العجاج . ولذلك عده الرواة فى الرجاز كامرئ القيس فى الشعراء

والذى يعنينا من هؤلاء الثلاثة الصدور المقدمين هو أبو النجم العجلى

واسمه المفضّل[2] أو الفضل بن قدامة ، يرتفع نسبه إلى عجل ابن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل

وقبيلة بكر من القبائل المعرقة فى الفصاحة والبيان ! ويكفيها فخراً أنها أخرجت للعرب الأغلبَ وأبا النجم من الرجاز ، وطرفة ابن العبد والحارث ابن حِلّزة وأعشى قيس من الشعراء أصحاب المعلقات !

كان أبو النجم يمتاز من صاحبيه : العجاج ورؤبة — على ما لهما من مزايا — بأشياء :

كان بارعاً إلى الغاية من البراعة فى النعوت

وكان حاضر البديهة سريع الخاطر : يحدث الأصمعى أنه قال أرجوزته : الحمد لله العلى الأجلل ، فى قدر ما يمشى الإنسان مسافة غلوة أو نحوها (مقدار رمية سهم)

وكان أحسن الناس إنشادا ، وكانت له فى الإنشاد عادة غريبة ! وهى أنه يُرخى ويُزبد ويرمى بثيابه فيضيق عليه ذلك رهبة وهيبة !

(١) رغبة الآمل ٤ : ١٩٣

(٢) على الخلاف بين الشيبانى وابن الأعرابى

وروعة الإنشاد لا ينكر أثرها فى الغلبة والفلج ! وبخاصة فى عصر يعتمد فيه على المشافهة والسماع ، ويتلاقى فيه الخصوم وجهاً لوجه فى المواسم والأسواق

بل إن الإنشاد لم يفقد روعته فى عصرنا هذا — عصر القراءة والكتابة — فقد كان عدة (حافظ) فى التلعب بعقول الجماهير ، وانتزاع التصفيق منهم ، حتى لقد كان يقوم له ذلك مقام البراعة والإبداع فى شعر (شوقى)

ومن شعرائنا المعاصرين من تسمع شعره ثم تقرؤه ، فإذا الفرق بين ما سمعت وما قرأت كالفرق بين الدر والخزف لكثرة ما يتحاسن فى إنشاده ويتصايح ويمعن فى التأوّه والتباكى والشهيق والزفير !

وكان أبو النجم — فوق تمكنه فى الرجز — شاعراً مجيداً وقد تغنت فى بعض مرّقصائده عُليّة بنت المهدى ، كما أنه انتصر على الفرزدق وجماعة من الشعراء فى مجلس سليمان بن عبد الملك ، وحاز الجائزة دونهم بقصيدته الفخرية التى أولها :

« علق الهوى بحبائل الشحناء »

ومن المقرر فى[1] عرف النقدة : أن كل مقصّد يستطيع الرجز — وإن لقى فى ذلك بعض المشقة — وليس كل راجز يمكنه التقصيد . والشاعر الراجز أعلى مقاماً ممن حظه الشعر أو الرجز فحسب ، فإذا اجتمع الشعر والرجز والمقطعات لإنسان سمى : الكامل . وقد ظفر الفرزدق بهذه المرتبة ، ثم أبو نواس من المحدثين .

ولم يكن بد أن تستحرّ المنافسة بين أبى النجم وبين العجاج وابنه رؤبة ، وقد أظلهم عصر واحد ، وجمعتهم صناعة واحدة . ولكن الباحث المتقصى يستطيع أن يرد هذا الصراع إلى سبب أعمق من المعاصرة : وهى العصبية القبلية ؛ فالعجاج وابنه من تميم ثم من مضر ، وأبو النجم من بكر ثم من ربيعة ، وبين تميم ابن مُرّ وبكر بن وائل إحن ومضاغنات فى الجاهلية والإسلام ! وبين مضر الحمراء وربيعة الفرس حقود وحزازات حملتها قبائلهما إلى كل بلد نزلت فيه !

وكان العجاج ورؤبة يحذران أبا النجم ويداريانه ، لما عرف عنه من شكاسة الطبع وزعارة الخلق !

(١) العمدة ١ : ١٢٦

يقول عامر بن عبد الملك المسمعى : كان رؤبة وأبو النجم يجتمعان عندى ، فأطلب لهما النبيذ ، فكان أبو النجم يتسرع إلى رؤبة حتى أكفّه عنه !

ويحدثون[1] : أن فتياناً من عجل قالوا لأبى النجم : هذا رؤبة بالمِرْبَد يجلس فيسمع شعره ، وينشد الناس ويجتمع إليه فتيان من تميم ، فما يمنعك من هذا ؟ قال : أو تحبون هذا ؟ قالوا : نعم قال : فأتونى بعس[2] نبيذ ، فأتوه به فشربه ، ثم نهض قائلاً :

إذ اصطبحت أربعاً عرفتنى ثم تجشّمتُ الذى جشّمتنى

فلما رآه رؤبة أعظمه ، وقام له من مكانه وقال : هذا رجّاز العرب

ثم أنشدهم أبو النجم أرجوزته اللامية ، فقال رؤبة : هذه أم الرجز

ومن طريف مراجزاته[3] للعجاج : أن العجاج خرج محتفلاً ، عليه جبة خزّ وعمامة خزّ ، فوق ناقة له كوماء (عظيمة السنام) قد أجاد رحلها ، حتى وقف بالمِربد ـ والناس مجتمعون ـ فأنشدهم أرجوزته الرائية :

« قد جبر الدين الإله فجبر »

فذكر ربيعة ومجاها ، فجاء رجل إلى أبى النجم ، فقال له : أنت جالس ، وهذا العجاج يهجونا بالمربد قد اجتمع عليه الناس .

فقال أبو النجم : صف لى حاله وزيه الذى هو فيه ، فوصفه له ، فقال : ابغنى جملاً وأكثر عليه من الحناء ، فجىء بالجمل إليه ، فأخذ سراويل له فجعل إحدى رجليه فيها ، وائتزر بالأخرى ! وركب الجمل ودفع خطامه إلى من يقوده حتى أتى إلى المربد

فلما دنا من العجاج قال للقائد : اخلع خطامه ؛ فخلعه ، وأنشد أبو النجم أرجوزته :

« تذكر القلب وجهلاً ما ذكر »

والجمل فى أثناء ذلك يدنو من الناقة ويتشممها ! والعجّاج يتباعد لئلا تفسد ثيابه ورحله بالقطران !

حتى إذا بلغ أبو النجم إلى قوله :

إنى وكلُّ شاعر إذا شعرْ شيطانه أنثى ، وشيطانى ذكرْ

(١) ترجمة أبى النجم ـ الأغانى — ٩

(٢) القدح العظيم

(٣) جمعنا بين رواية الأغانى والخزانة

فما رآني شاعر إلا استتر فِعْلَ نجوم الليل عاينَّ القمرْ

وثب الجمل على الناقة ! !

فهرب العجاج والناس يضحكون قائلين :

« شيطانه أنثى وشيطاني ذكر »

وكان أبو النجم ينزل سواد الكوفة وينتجع بقصيده ورجزه خلفاء بني أمية وولاتهم ، فيحسنون لقاءه وينفحونه بالعطاء

وله مع الخليفة هشام بن عبد الملك أخبار طريفة ونوادر حسان كان يجري فيها على سجية الأعراب لا يُوارب ولا يحتشم !

فمن ذلك : أن هشاماً قال له يوماً : حدثني يا أبا النجم . قال : عني أو عن غيري . قال : بل عنك . قال : إني حين علتني الشيخوخة كان يعرض لي البول في الليل ، فوضعت عند رجلي شيئاً أقضي فيه حاجتي . فقمت ذات ليلة لأبول ، فخرج مني صوت ! فتشددت وتماسكت ، وعدت مرة أخرى ، فخرج مني صوت آخر ! فأويت إلى فراشي ، وهتفت بزوجي : يا أم الخيار[1] هل سمعت شيئاً ؟ فقالت : لا ، ولا واحدة منهما !

فضحك هشام وأمر له بصلة

ومن نوادره المضحكة المبكية : أنه ورد على هشام في الشعراء ، فقال لهم : صفوا لي إبلاً ، فقطروها[2] وأوردوها وأصدروها ، حتى كأني أنظر إليها

فأنشده الشعراء وأنشده أبو النجم أرجوزته التي من ذكرها :

« الحمد لله العلي الأجلل »

وهشام يصفق بيديه استحساناً لها ! ومضى أبو النجم في إنشاده إلى أن بلغ قوله في وصف الشمس :

حتى إذا الشمس جلاها المجتلي بين سِماطَيْ[3] شفقٍ مُرعبَل

صَغواء[4] قد كادت ولما تفعل فهي على الأفق ... ...

كان تمام البيت : كعين الأحول

وهنا تذكر أبو النجم — بعد فوات الأوان — أن هشاماً أحول ! فامتُقع لونه ، وتخاذلت أوصاله ، وجمد لسانه في فمه !

(١) هي التي يقول فيها :

قد أصبحت أم الخيار تدعي على ذنباً كله لم أصنع

(٢) قطر الابل بالتشديد والتخفيف : قرب بعضها الى بعض على نسق

(٣) السماط : الصف والجانب ، والمرعبل : المقطع

(٤) مائلة للغروب

وأراد أن يغير البيت فخذله شيطانه ! وحار في أمره فأطرق واجماً !

ولم يفطن هشام للسبب ، فضجر وصاح به : أجز ! فلم يسع أبا النجم إلا أن يصدع بالأمر فقال :

كعين الأحول !

نطق بها كحشرجة المحتضر ! والقافية (لا تعذر)

وكان هشام — على عقله وكيْسه — فظاً غليظاً خشناً ! فاستشاط غضباً ! وأمر بوجء[1] عنقه ! فتبادر إليه الخدم يدفعون في قفاه ! حتى خرج من المجلس وهو لا يصدّق بالنجاة !

ولم يكتف هشام بذلك ، فأمر الربيع صاحب شرطته ألا يريه وجه أبي النجم بعد هذا ! وأن ينفيه من الرصافة[2] !

ولكن وجوه الناس شفعوا له عند الربيع ، فأقرّه فيها

ولم يكن أحد يُضيف في الرصافة ، غير سليم بن كيسان الكلبي ، وعمر بن بسطام التغلبي ؛ فكان يتغدى عند سليم ، ويتعشى عند عمر ! ويؤم المسجد ليلاً فيبيت فيه !

(البقية في العدد الآتي)

علي الجندي

(١) كناية من الوكز والصفع

(٢) رصافة الشام أو رصافة هشام على طرف البرية ، بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام ، وكان يسكنها في الصيف وكانت من قبل من بناء الغساسنة . خزانة الأدب للبغدادي ٢ : ٣٥١

الفصول والغايات

في تمجيد الله والمواعظ

وهو معجزة أبي العلاء المعري في النثر

لم يبق منه إلا نسخ محدودة

فاطلب نسختك قبل نفادها

يباع في ادارة الرسالة وثمنه ٣٠